

إسلام الشيخ !!

كان أبو قحافة والد أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فى ظلمة من نفسه وروحه ، لأنه ظل مشركاً بالله ، غير مؤمن به مدة طويلة ، وظلمة من عينيه ، لأنه قد كف بصره ، ولم يعد يرى الضوء ينتشر فى الآفاق ، ويشرق على الوجود فيبدد الحليكة ، ويكشف الظلام . . .

ولكنه شعر الآن ، وقد مكن لمحمد وأصحابه فى الأرض ، وعادوا إلى مكة فاتحين منتصرين ، بعد ما خرجوا منها فارين ، شعر بأن هؤلاء القلة على حق ، وأنهم عما قريب سيخرجون على العالم بهذا الدين الجديد ، الذى ضمن للناس سعاداتهم . . .

لقد أدرك الآن ما وقع فيه من خطأ قاتل ، حينما كان ينكر على محمد ما ينادى به ، وحينما كان ينكر على ابنه أبى بكر اتباعه لمحمد وصحبته له ، وهجرته معه من مكة إلى المدينة . . .

يا لله لقد انقلب الوضع وتغير الحال ، وأصبحت هذه الفئة القليلة الذليلة ، التى كانت تقاسى الهوان فى كل مكان ، وتجاهه الإذلال والقسوة ، والتجريح والطرده أصبحت عزيزة غالبية ، بيدها فى المدينة الأمر والنهى ، ويدها فى مكة كذلك الأمر والنهى ، لا يقدر إنسان أن يقطع فى أمر لا تريد نفاذه ، ولا أن يحبط شيئاً تريد إتمامه ، فأى فرق بين الحالين ؟ !

واندفع الشيخ يذكر ما فعله مع ابنه بسبب إيمانه بمحمد ، ولومه له ،
وتجريحه لهؤلاء المسالمين ، الذين هدموا ما ورثته قريش من عبادة الأصنام
وتقديس الأوثان .. إنه الآن يعترف تمام الاعتراف أن هذه الأصنام التي
التي كانوا يعبدونها ، وتلك الأوثان التي كانوا يقدرونها ، لم تكن لتدفع
عن نفسها الضر ، أو تجلب الخير ، وأنهم كانوا يفعلون هذا تقليداً للآباء
فسب ، وأن العقل يأبى ما كانوا يفعلون ، وينكر هذه السبيل التي اندفعوا
فيها ، وذلك التيار الذي جرفهم في قوة وعنف ، لا يكاد أحدهم يستعمل
المنطق ، أو يفكر لحظة فيما يفعل ، وإنه لو فعل لحطم هذه الأصنام ، واحتقر
تلك الأوثان ، ولكن أول متبع لمحمد ، مؤمن به وبما جاء به من عقيدة
واضحة لا إخفاء فيها ولا غموض .. فالله واحد لا شريك له ، يجب أن يخلص
له الإنسان العبادة ، وأن يعترف له بالعبودية ، وأن يقر له بالوحدانية ، وأن
يتبع ما أمر به ، وأن يجتنب ما نهى عنه ، وبهذا وحده تستقيم أمور الناس ،
وتتضح المعالم ، وتعرف الحدود ..

وهذا قلب الشيخ إلى الإسلام ، كما يهفو القلب إلى من يحب ، وأدرك
أنه أضاع من عمره زمناً كان من الواجب ألا يضيع ، وكان من المحتم أن
يعتز به ، وأن يكون قد استفاد منه فائدة كبيرة ، ولكن ماذا يفعل وكل
شيء بمقتضاء وقدر ، ولم يخلص من سلطان شيطانه إلا بعد أن فتح النبي
وأصحابه مكة ، ورجعوا إليها أعزاء ، بعد ما خرجوا منها أذلاء ؟!

وعلم أبو قحافة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذي
طوى ، وقف على راحلته ، وتعمم بنصف برد حبرة حمراء ، من ثياب

اليمين ، ولم يجعل لهذه العمامة ذؤابة (أى عذبة) بل اعتبرها مصممة ، وقد بلغ من شدة فرحه بهذا النصر ، وتواضعه لله سبحانه ، الذى أجراه على يديه وأيدى أتباعه وأنصاره ، أن عُثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ، من شدة تواضعه ، وإطرافه برأسه . . ! !

ما هذا التواضع العجيب ؟ إنه الآن منتصر ظافر ، فكيف لم يطغه هذا الظفر والنصر ؟ وكيف يطرق برأسه هذا الإطراق ، وكأنما يشهد الله الذى نصره ويؤمن به ، أنه على عهده به ، تواضعاً وإخلاصاً ، وحباً وعبادة ، وشعوراً بالعبودية الخالصة ، وإيماناً بالنصر المحقق ، والظفر الغالب ؟ !

أين محمد بن عبد الله بأخلاقه الفاضلة ، وصفاته الحميدة ، ومزايه التى تجل عن الوصف ، من سادات قریش ، الذين يجأونهم ، ويرفعون قدرهم ومكاتبهم ، وينظرون إليهم نظرة التقديس والاحترام ، فى كل ناد ومجتمع ؟ إنه الفرق بين السماء والأرض ، والنور والظلمة ، والهدى والضلال . .

* * *

وثار شعور الشيخ ، وفاضت عيناه ، ولم يعد يطيق صبراً على هذا ، وعلم أنه حرم الخير الكثير ، لأنه لم يؤمن بمحمد من حين علم بأمره ، وسمع بنبوته ، وأن ابنه أبا بكر خير منه ألف مرة ومرة ، لأنه نال هذا الفضل

واتجه أبو قحافة إلى ابنة من أصغر ولده ، حين كان الرسول صلوات
الله وسلامه عليه بنى طُوًى ، وأخذ بيدها لتقوده إلى حيث يريد ، ثم قال
لها في حنان وعطف :

— أى بنية ، أظهرى بى على أبى قبيس . . اصعدى بى إلى هذا

الجبلى . . .

وعجبت هذه البنت الصغيرة لهذا ، ولم تفهم الغرض من هذا الصعود
وهذه الجولة ، فهى تعلم أن والدها كفيف البصر ، لا يرى شيئاً مما حوله ،
ولا يستبين شيئاً مما أمامه ، فما الداعى إذن للجهد ، وما الغرض من ذلك
العناء ؟ ولكن ليس من حقها أن تعارض رغبة أبها ، فصعدت به إلى
جبل أبى قبيس ، حتى بلغت القمة ، ووصلت إلى الذروة ، وقالت :

— ها قد بلغنا ما تريد . . .

— هل ترين ما حولك ؟

— أجل . وفى وضوح . . .

— ماذا ترين ؟

— أرى سواداً مجتمعا . . . !!

وأدرك الشيخ كنه هذا السواد ، وإن كان لم يره ، فهو يدرك بطبيعته
أن هذا السواد هو الخليل ، عادة العربى فى الحرب والسلم . . أدرك هذا
وإن فقد بصره ، ولم تنعكس فى ناظريه صور هذه المرثيات ، فقال لابنته :

— أى بنية ، تلك الخيل ، فماذا ترين بعد ذلك ؟
— وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . .
— أى بنية ، ذلك الوازع ، الذى ينظم الصفوف ، يأمر الخيل ،
ويتقدم إليها ، ياتمر الجميع بأمره ، ويعملون له ألف حساب وحساب . .
— قد والله انتشر السواد . .
وبدا على الشيخ التفكير ، والاهتمام الشديد ، وأخذ بيد ابنته فى قوة
واندفع إلى الطريق قائلاً :

— قد والله إذن دفعت الخيل ، فأسرعى بنى إلى بيتى . .
وأدركتها الرهبة والخشية ، وتملكها الخوف ، وبخاصة وأنها تعلم أن
والدها رزين جداً شجاع لا يخشى النائبات ، فما الذى يدفعه إلى الفرار إلى
هذا الحد ؟ لا بد أن يكون فى الأمر ما يخيف ، فأطلقت لساقها الريح ،
بقدر ما يسمح لها ارتباطها بوالدها ، وقيادتها له ، وانحطت به عن سفح
الجبل ، فى إسراع واضطراب . .

لقد كانت صورة جميلة على الرغم من تناقضها ، فهذا شيخ مهتم
القوى ، محطم البدن ، يتجه إلى النهاية المحتومة ، وأصبح من الحفرة
المظلمة ، على بعد خطوات . . قد ودع آماله فى الحياة ، وانقضى منها وطره ،
وإن كان لا يزال يمتد فيها أمل محدود ، وأمنية متواضعة ذليلة . . أما ابنته

المظلم ، والرمس الضيق ، مهما طالت الحياة ، وامتدت أسبابها ، ومهما عم
الفرح آفاقها ، وشمل نواحيها وأرجاءها . .

* * *

وعجب أبو قحافة ، ذلك لأن الخليل أدركته قبل أن يصل إلى بيته . .
فكأنما هي تنحدر انحداراً ، وتطوى الأرض طياً ، دون أن تجد في ذلك
جهداً ولا عناء ، فما هذه السرعة العجيبة ، وذلك التقدم المطرد ؟ !

بيد أنه تألم أشد الألم حينما صرخت ابنته ، بعد أن ابتعد عنهما رجل
لا يدري من أمره شيئاً . . لقد كان في عنقها طوق من فضة ، تزين به ،
وتتحلى بمنظره الجميل ، وتشعر بوجوده في عنقها بلذة لا تدانيها لذة ، وفرح
لا يعادله فرح . . فرح الصغيرة بقطعة حلليها ، التي تشعرها بالأنوثة والجمال ،
وأنها شيء مرغوب فيه ، ومحبوب من كل من يراه ، وأن هذه الحلية
تلفت إليها الأنظار ، وتجذب العيون . .

وفي الطفلة الصغيرة طبيعة المرأة الكبيرة ، لا تختلف هذه الطبيعة
إلا فيما يدعو إلى التفكير والروية ، والتدبر والتعقل ، كما أن في الطفل
والصبي طبيعة الرجل ، يحاول أن يسبق الأيام فيظهر بمظهر القوة ، ويلذ له
أن يشعر بهذا ، وأن غيره يراه رجلاً في حركاته وسكناته . . ! !

لم يدرك أبو قحافة من هذا الرجل ، ولماذا فعل ما فعل ، وهل طمع
في هذا الطوق يأخذه ليبيعه وينتفع بثمنه ، أم فعل ذلك مجرد الانتقام

أو العبث واللغو؟ لم يدر شيئاً من ذلك .. ولم يدر أيضاً أمشرك هو على دين قريش ، يعبد الأصنام ويقدم الأوثان تقرباً للآلهة ، أم هو من الذين آمنوا بمحمد ، وصدقوا بما جاء به من القرآن والدين الجديد ؟ إن هذا لا يليق برجل أن يعمل به بحال من الأحوال ، وإنها السرقة الجريئة الدنيئة ، وإن أتباع محمد لا يرتكبون مثل هذه الأمور . . . إذن فلا بد أن يكون الذي فعل هذا نكرة من النكرات ، التي تعيث في الأرض فساداً ، لا تخاف طائلة العقاب ، ولا تخشى إلا ولا ذمة . . .

لقد حزن أبو قحافة حزناً عميقاً ، لالأن قيمة الطوق غالية ، أو لأنه فريد في بابه ، أو عزيز المنال ، بل لأن ابنته حزنت عليه ، ووجدت في قلبها لذعة محرقة ، وأنها ليست في كنف رجل تُخشى سطوته ، أو يرهبه الناس ، بل بلغ به الضعف والوهن ، أن أصبح غير مرهوب الجانب ، لا يمكنه أن يحمي الدمار . . .

لقد آلمه هذا المعنى أشد الألم وحز في نفسه حزناً عميقاً ، فتضاءلت نفسه في ناظره ، وعلم أنه لو كان يتمتع بنور عينيه ما أقدم هذا الغاصب على فعلته الذميمة ، ولما استهان به إلى هذا الحد الأليم

يا لله ! ألا يرى هذه الشيخوخة ؟ وهذا الضعف ؟ وهذا العمى ؟

كيف يتناسى هذا كله ، وهو نهاية كل حي ، وعاقبة كل إنسان ؟

وثارت عواطف أبي قحافة ، وهاجت أحاسيسه ومشاعره ، ففاضت

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، واتجه كعادته دائماً عند
خل أي بلد إلى المسجد ، حيث ينزل ضيفاً على خالق الكون ،
يا نسيم ، رب العالمين ، ويشعر نفسه أنه في حمى ذلك الجنب العالى
بيده ملكوت السموات والأرض ، واتصت الأحاديث بين الرسول
، صحابته . . .

وفي هذا الحين قال أبو بكر رضى الله عنه لأبيه :

— يا أبت ! طالما تواتيك الفرصة ، فلا تنهزها ، ولا تقبل عليها ،
لها تمر في هدوء ، وتفلت منك ، وتبقى بعد ذلك وليس في يدك منها
، فما هكذا هم الرجال . . .

— ماذا تعنى يا بنى ؟ !

— أعنى أن الإسلام فرصة يجب أن تهتبلها وتغتتمها ، ولا تبقى كما أنت
مات الشرك والضلال . . .

— ظلمات الشرك . . .

— أجل ، واقعد أصبحت على بعد خطوات من النهاية المحتومة ،
بأن تقضى وأنت على خير حال ، وليس بعد الإسلام والإيمان خير ،
راء التوحيد غاية لإنسان . . .

وصمت أبو قحافة ، وبانت عليه علام الاقتناع ، وتطامنت رقبته بما
أبو بكر هذه الفرصة ، ولم يدعها تفلت ، وأخذ بيده يقوده إلى رسول
لى الله عليه وسلم . . . يقوده إلى الحياة السعيدة الهائلة ، والنور الساطع ،

والضياء الغامر . . إلى الفيض الإلهي ، حيث يرد هذا المورد العذب ،
فترتوي منه الروح ، ويتطهر الجسد من أدران الشرك والضلال ، ويدع
ذلك الطريق المظلم ، الذي يؤدي بكل سالك فيه إلى الهاوية السحيقة ،
حيث ظلام الروح ، وذنس النفس ، وقذارة البدن . . !

وشعر أبو قحافة وهو سائر مع ولده أبي بكر بنشاط عجيب ، وارتياح
يعمر نفسه وقلبه ، ويسيطر على حواسه ومشاعره ، فلا يزال الضمير منزويا ،
في ناحية خفية ، منكشاً في موضعه ، ينتظر الفرصة ليتحرك ، ثم يثب
ويقفز ، ويؤدي مهمته على خير وجه ، فيؤنب ويلذع ، وينجز وينزع ،
ويحمل دائماً لواء الحق ، مقاوماً شرور النفس ، وفساد النية ، وسوء
المعاملات . .

وما أعنف الضمير حين يستيقظ في هذا الحين ، بعد ما يطول رقاده
وركوده ، وخموله وهموده . . إنه لا يزال يصرخ بصاحبه ، ويدوي في عنف
وجبروت ، حتى يهدف به إلى الغاية ، ويصل به إلى الحق . .

وعجب الرسول الكريم حينما رأى أبا بكر يقود والده إليه ، فهو على
ما هو عليه من الضعف ، وتقدم السن ؛ فأدركته الرحمة به ، والشفقة عليه
وقال في عطف :

— هلا تركت الشيخ في بيته ، حتى أكون أنا آتية فيه ؟ !
فأجاب أبو بكر في عزم وإيمان :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك ، من أن تمشى إليه أنت ..
ووجد أبو بكر لهذه العبارة أثراً ظاهراً في نفوس السامعين ، وعلم أنه
أعلن الحق الذي يؤمن به ، وأن العلاقة ليست أبوة وبنوة ، أو أخوة
نسب ، أو أمومة وعمومة وخطوالة .. إن هذه كلها علاقات لا قيمة لها
بجانب العلاقة الأولى ، التي يجب أن يهتم بها كل فرد ، وينظر إليها كل
إنسان .. إن العلاقة التي تستحق التقدير والإجلال ، والنظر بعين الاعتبار ،
هي علاقة الإيمان والإسلام ، فهي الخالدة الباقية على مر العصور والأيام ،
وهي التي تنقذ من الهلاك ، وترفع الدرجات ، وتكون شفيماً يوم لا تنفع
الشفاعة إلا بإذن الله ..

وارتاح الرسول صلى الله عليه وسلم ، لإجابة أبي بكر ، فهي إن دلت
فعلى الإيمان المطلق ، وتقديم الله على كل شيء ، وعدم النظر إلى غيره أبداً
مهما كان الأمر ، وليس وراء هذا أهل لمسلم ولا مؤمن ، ومن كأبي بكر
فهما لدقائق الدين ، وتمتعاً بنور اليقين ، وحرصاً على جمع كلمة المسلمين ؟ .

وارتاح أبو قحافة لما دار من حديث ، فلم يعد يشعر بتلك العزة
الآثمة ، والنعمة المقيتة ، والمصيبة الجاهلية ، وإنما شعر بنفسه تتطامن ،
وبقلبه يتفتح للنور الجديد ، وكأنما ملك عليه ذلك حواسه ومشاعره ،
فلم يكن كما كان بعداً عن الحق ، وانصرافاً عن الله ، ربه ورب محمد
ورب الناس أجمعين .

سبحانك اللهم مقلب القلوب ، ومغير الأحوال ، أحسنت خاتمة هذا

الشيخ ، إكراما لابنه الذي يعتبر دون ريب من الرعيل الأول ، الذين رفعوا منار الدين الإسلامي ، وأقاموه على أساس متين ، وقرار مكين ، من العدل الشامل ، والخير المطلق ، والصلاح المبين . . . !!

وأجاسه أبو بكر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينال الرضا الشامل ، والفضل العظيم ، فمسح الرسول الكريم صدره ، ثم قال له في هدوء وإرشاد ، وعطف وإشفاق :

— أسلم . . .

ووقعت هذه الكلمة من نفس أبي قحافة موقعا عظيما ، هزت مشاعره وأحاسيسه ، وملكت زمام نفسه ، وأحس بصداها في قلبه يتردد في قوة وعظمة وإجلال ، وإذا به يندفع في عزم وحزم ، وإخلاص ويقين ، قائلاً :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . .

وكانما أعجبت هذه الحال الجديدة من في المجلس ، وفرحوا بها ، فقالوا جميعاً في نفس واحد :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . .

وصمت الجميع معتبطين ، فلقد انضم إليهم جندي جديد ، نزل الوجود نزلة أخرى ، وكانما أراد الرسول أن يحقق هذا المعنى في نفوسهم ، ويؤكدده ويقويه ، فقال لأبي بكر :

— غيروا من شعره هذا . . .

ونظر أبو بكر إلى والده ، فإذا برأسه تشبه شجر الثعام ، فهي بيضاء

ليس بها شعرة واحدة سوداء ، وكأن هذه الشيبة كان من الواجب أن
تسبب في الإسلام ، وأنها الآن نذير الضعف والوهن ، والخور والانحلال ،
فمن المناسب أن تأخذ لونا آخر ، فيه طابع القوة والصحة والعافية . .
فلتخضب إذن بالحناء ، فيتوارى هذا البياض الذي يجال رأسه ، حتى
يأخذ مظهره بين إخوانه المسلمين اللائق به ، وايبدأ عهداً جديداً كله
العبودية لله ، والجهاد في سبيل مرضاته ، وإعلاء كلمته ، ورفع لواء الحق
في كل مكان . .

* * *

ولم ينس أبو بكر طوق أخته ، فقام بين الحاضرين ، وأخذ بيدها
في عطف وقال في صوت مرتفع :

— أنشد الله والإسلام طوق أختي . .

ولكن أحداً لم يجبه ، إذن فليس من أخذه بينهم ، وإلا لبادر
بتقديمه عن رضا وطواعية ، وهنا اتجه إلى أخته وقال :

— أي أخية ، احتسبي طوقك ، فوالله إن الأمانة في الناس

اليوم لقليل . .

وصمت ، ولكن فرحه بإسلام والده فاق كل فرح ، ورؤى يتدفق
البشر في وجهه ، وتفيض به نفسه ، ولم يخف ذلك كله على من حوله ،
فأقبلوا عليه وعلى والده مهئين . . ! !